

احتلال بحر الغزال

٧

قبيلة الجور

تركتنا حلة الشيخ أيوم وراءنا وهي آخر منازل الدنكا في تلك النواحي. فتتفنا الصعداء ودخلنا بلاد الجور وهم قبيلة من السود يقطنونها وقبيلة الشوك من اصل واحد لما بينهما من الشابهة في اللغة والعادات. والجور على قلة عددهم وضعفهم ارق كثيراً من الدنكا ولم مهاراة في صيد البر والبحر وفي استخراج الحديد من مناجيم وعمل الحراب والقسي والسهام والفوس وأساور الخاس والصفير والحديد قبيحون كثيراً من هذه الآلات والخلي للدنكا وجل اعتماد الدنكا في الصناعة عليهم لانهم لا يعرفون شيئاً منها وقصارى ما تعلموه من غزاة الدناقلة وغيرهم استخراج العرق من البيوزة ولا اظنهم يختلفون الآن عما كانوا عليه في زمن بترك وشونفورث. واغرب ما فيهم ان سلاحهم في البلاد التي جلتها لا يمدى الحراب والفرق مع ان الجور والبقره على رية سهم منهم وهم يسلحون بالقسي والنبال منذ عهد بعيد

زراعة التبغ

ونقد مني التبغ فاشترت غليوناً (حجرًا) وقليلًا من تبغ تلك البلاد لكنني وجدته قويًا جدًا فلم اقول على تدخينه. والتبغ هناك نوعان وهما التباك والتبغ المروف وهم يجمعونه رطبًا ويحملهون قوالب صغيرة شبيهة بقوالب الكرم يحفرونه. فاذا ارادوا التدخين سحقوه بين اصابعهم ودخونه في غلايين كبيرة جدًا قد يسع الواحد منها مئة درهم. وبعضهم يصفه مضغًا وهي عادة شائعة جدًا في السودان كله فاذا اكتنى الواحد منهم المصفحة من قوه والصقها وراء اذنه ثم عاد اليها متى اشتاتت نسه الى المنغ وقل ترى اسود الا وغليون في يده او مضغ في فيه او وراء اذنه. ولو عني اهالي بحر النزال بزراعتهم كلها غنايتهم بزراعة التبغ لانبت بلادهم من الحبوب ما يكنى السودان والقطر المصري كله بل زاد على ذلك والدكتور شونفورث تزيل مصر الآن بحث في تبغ تلك البلاد ذكر فيه ان اسماءه في

(١) تظن انقاف في الاعلام السردانية والمغربية كما يجمع المصرية وقد جريت في كتابها على طريقة اهل السودان والحرب واكثر المرفقات العربية القديمة فيقال مثلاً ملكة باقرمي ومدينة فوربتا وقوز ابي حمة والبادي افارق وقبيلة المحلاقة وكياثر سلطان القولو كلها بانقاف لا يجمع

أكثر لغات التباين هناك تشبه النطق الافرنجي اي تباكر منها أه تيو وتاب وتاباً وتابديت وتمّ مما يدل على انه دخيل فيها . اما التباك فاسماؤه مختلفة وربما كانت اصلياً في اواسط افريقية

وسواء كان التباك اصلياً في الشرق او دخيلاً فيه كالتبغ فلا شبهة في ان هذين اللفظين اي التبغ والتباك دخيلان في العربية وغيرها من اللغات الشرقية وما اشتقان من لفظة تباكو الاميركية لان لفظة تباكو من الطباق العربية كما يرى بعض كتابنا وعلمائنا الافاضل . فالطباق يختلف كثيراً عن التبغ وهو من التفصيلة المركبة من طائفة حشيشة البراغيت^(١) ويعرف في الشام بالطين^(٢) وفي الجزائر بالسكرمان ولا بيت في مصر في ما اعلم واشبهت به في هذه البلاد رعرع ايبوب^(٣) وهو مشهور ويختلف عنه بخلوه من اللزوجة . اما التبغ فمن التفصيلة الباتنجانية التي منها البطاطس والداتورا والحدق وعب الدب والفلفل الاحمر وغيرها . ولا محل هنا للبحث في هذه المسألة ومن شاء فليراجع وصف الطباق في كتب اللغاة ومفردات ابن البيطار وتذكرة داود الانطاكي وهذا توفي بعد دخول التبغ الى الشرق بخمسين سنوات فذكر الطباق ولم يذكر التبغ . وقد ورد ذكر الطباق في كتاب كشف الرموز لعبد الرزاق الجزائري من اطباء القرن الثاني عشر للهجرة فوصفه وقال انه يسمى المكرمان في الجزائر ولم يقل انه التبغ وكان تدخينه شائعاً جداً في ايامه ولا يقل انه كان يجمله

الأرضة

ورأينا في بلاد الجور بوماً من الارضة لم نره قبلاً وقد مر ذكر الارضة في رسالة سابقة وهي حشرة صغيرة تعرف عند عامة الانكليز والفرنسيين بالتملة البيضاء وهي معروفة عند العرب منذ عهد بعيد . قال الدميري نقلاً عن القزويني ما نصه : « اذا أتى على الارضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما وهي ذابة الارض التي دلت الجن على موت سليمان عليه السلام » . ثم ذكر امر الصحيفة التي كتبها قريش عن بني هاشم وعلقوها سبب الكعبة فأكلت الارضة بعض ما كتب فيها

والارضة انواع كثيرة اشتهر بها الارضة الحاربية وهي كثيرة جداً في السودان وبلاد العرب ومعروفة في بعض انحاء القطر المصري . تبني لها بيوت مخروطة الشكل قد يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرين قدماً في كل بيت او قرية اربع طوائف منها وهي العملة والجند وذوات الاجنحة ثم الملكة والمملكة وهما الذكر والانثى . فاذا جاء فصل المطر خرجت ذوات الاجنحة من

القرى فلا تلبث حتى تسقط اجنتها فيلتقطها السود ويأكلونها ويقال ان ضمنها لديد جداء .
وقد سمعت نساء الجنود يسميها بالزرازير وهي كثيرة النهن فكن يلقينها بما كان يبيل منه
مضى وضعت على النار

وهذه الحشرة او البلحري طائفة العملة منها كثيرة الاضرار بالجلود والاشناب والامتعة
فقد تأكل السرج او الخداء في ليلة واحدة وقد كنت مرّة نائمًا في ظل شجرة فاكنت بعض
الملابس التي على . والحكومة مهتمة بها كثيرًا وقد جربت وسائل كثيرة لاهلاكها بنهر
جدوى على ان الادهان التي فيها مركب من مركبات الزرنيخ او الرصاص لقي الاخشاب
منها اذا دهن بها

اما الارضة التي رأيناها في بلاد الجور فيختلف بيوتها عن بيوت الارضة الحاربة فهي
اصغر منها كثيرًا لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثين عقدة وهي شبيهة في شكلها ببات الفطر . وقد
ورد ذكر الارضة بوصفها مرارًا عديدة في المتنصف امها ما جاء في ٩ : ٤٦٥ و ٢٦ :
١٩٠ و ٣٩ : ١٤

الوصول الى وار

وبعد سير تسعة ايام اصبحنا وبيننا وبين وار نحو ثلاثة اميال قلت حتى ان نصيب
صيداً قبل وصولنا فحملته هدية الى الجنود الذين فيها واذا تور وحشي عرض لنا على الطريق
امامنا ولم يكن بيننا وبينه أكثر من مئة متر فوقف ينظر الينا كأنه يستنهم عن سبب قدومنا
وازعجتنا اياه في مرثمة . ولا بد أنه استغرب شكلنا وشكل الدواب التي معنا لأنه لم يره مثلها
قبلاً وكان من النوع المعروف بالي عرف وهو من اكبر انواع البقر الوحشية في السودان ولا
يقبل في عظم الجنة عن النور الاهلي . فاطلقت طليق رصاصه اصابت منه مقللاً ثم الخفتها بنهرها
حتى لا يقع بعيداً عنا فقط في مكانه فركت ثلاثة من الجنود بالحقون جلده ويقطعون
لحمه ولأ وصنا الى وار واصل البكاشي بلنوي من جاء بالحمه ففرح به الجنود كثيراً وكان
وصولنا نحو الساعة التاسعة صباحاً وقد بقي بيننا وبين المعسكر نهر يعرف ببحر الجور وكان
في أعلى فيضانه وقد بلغ اتساعه نحو مئتي قدم . ولم أكن اظنه في هذا العظم من الاتساع
والعمق فإنه بعد ازالة السد منه صارت البواخر النيلية تسير فيه في زمن الفيضان كما تسير
في النيل وهو ليس سوى ناصر من التوامر التي تم بحر الغزال وهذا يمد النيل الابيض
مع ما يمد من التوامر الاخرى كبحر السب وبحر الزراف . وليس النيل الابيض الأجزاء
من النيل الاعظم الذي يجري في مصر

ورأيت البكاشي يلقى واقفاً على الجانب الغربي وقد ارسل القوارب لمبورنا وكانت مصنوعة من الشحج الكتيح كل قارب قطعتان او ثلاث تُفصل الواحدة عن الاخرى فيسهل طيها وحملها . فارسلت الحمير اولاً ثم المؤونة ثم الجنود وكان اول سوال وجهه اليّ عن صحة الحمير وسلامتها فقلت مات منها ثلاثة على الطريق قال كنت اود ان تصل كلها سالمة لاننا في شدة الحاجة اليها ثم قال وكيف سمحك انت اخذتك جانماً ونادى خادمة ليبي لي طعاماً قلت اني لقي جوع شديد لكن شوقي الي التدخين اشد من شوقي الي الطعام فقدم لي سيكارة من اجود السكير المصرية ثم اعطاني مندوقاً منها . واتقد ذقت مرارة العيش وشيئاً يسيراً من حلاوته ونسيت أكثره لكتني لا انسى تلك السيكارة ولذتها

ولما اخذت نصيباً من الراحة اخذني واراني كوخاً صغيراً وقال هذا منزلك هنا لعمدت الله على تعدي وقلت قد صار لي سقف فوق رأسي وكان قد مضى طي اكثر من مئة اشهر اما في العراء او في ظل شجرة او خيمة . ولم نكن نعمل خيماً في سفرنا لان السواب لم تكن تمكنني لحمل المؤونة . فدخلت منزلي وارسلت حماري الي الاسطبل العامر حيث نزل ضيفاً على الحكومة

واو

وكانت واو كما مر بنا في مكان بني فيه الكولونل مرشان حصاناً مباحاً حسن ديزيه فلما تزادنا في اوائل يناير بيننا منازلنا حوله وحوطناها بزيادة من الخشب والشوك وبني الجنود منازل لسائهم خارج الزرية ثم جاء جماعة من الاهالي وبنا منازلهم هناك فصار المكان غاصاً بالسكان . ولم يكن فيه من الضباط عند وصولنا الا البكاشي يلقى واحمد افندي كامل ثم وقد طينا بعد ايام المرحوم اليوزباشي علي وهيي وكان قادماً من مصر . اما سباركس بك والبكاشي بري والبكاشي هميس والملازم الثاني محمد افندي علي فكانوا في بلاد التمام وهي على حدود ولاية الكونغو

ولم تطل اقامتنا في واو حتى اشتدت علينا الحمى الملاريا فكننا نقوم باعمالنا وهي ملازمة لنا . واتخذ كل منا عصاً يتوكأ عليها فكنت اذا ارتفعت الشمس وقلت الرطوبة من الهواء اخرج من منزلي وامر على الضباط فمن لم يكن معمولاً في ذلك اليوم او كانت الحمى خفيفة عليه خرج لاشماله والا بني في فراشه . وكان كامل افندي اشدنا نشاطاً فلذا قر الزاد في المحطة اخذ الحمير وسار غرباً في طلب الترة وكانت السواب قليلة جداً وقد مات أكثرها فتطوع حماري في هذه السفرة وعاد سليماً معافاً

واخذنا نبي منازل جديدة احسن من التي كنا فيها فاقنا بضعة عشر منزلاً شبيهة
بمنازل تلك البلاد لكنتا جعلناها مربعة لا مستديرة وجعلنا لبعضها حقوقاً مستمة . وحدث
ومعني نبي هذه المنازل ان البكاشي بلنوي قال لي جبدا لو كان عثمان صديق معنا قلت محياً
كنت اظنك غير راضيه عنه لما جرى بينه وبين الضابط الانكليزي بالاس في حديقة
الاز بكية قال هو من خيرة الضباط على شرط ان يكون بعيداً عن الشهرة اخرجته منها فلا
تجد من يشوقه في النشاط والعمل . لقد مضى على هذه الحادثة احدى عشرة سنة وقد ذكرتها
لاني لقيت عثمان بك صديق بالاس وزوجتها له فضحك كثيراً . وهو الآن ضابط في
الجيش العثماني ولم تكذب ايطاليا تعلن الحرب على دولتنا العلية حتى جاء من الاستانة
وسافر الى ساحة القتال . وكنت اود ان اذكر بعض ما اتى بوسن الاعمال الجيدة في
هذه الحرب لكن الحكمة تقضي بكتمانها في الوقت الحاضر . ولقد ابلى بلاء حسناً يوم دخل
جيش الحرية الاستانة في ثورتها المشهورة

مشكلة سائبة

لما دخلنا بحر النزال اظن سياركس بك ان الخصومات التي وقعت قبل الثاني من
سبتمبر سنة ١٨٩٨ وهو اليوم الذي دخلنا فيه ام درمان لا ينظر فيها بل يبتى كل قديم على
قدمه اما الخصومات التي وقعت بعد هذا التاريخ فيحك فيها حسب عادات البلاد . فجاونا في
احد الايام ومعه في واو جماعة من السود ومعهم امرأة يتنازعها رجلان منهم كل يدعي انها
زوجه وانه اشتراها بالمال وقد طال النزاع عليها فكانت تارة عند هذا الرجل وتارة عند ذلك
وقتل احدهم احداً بسببها . ولم يكن البكاشي بلنوي ميالاً الى الحكم في هذه المسألة لكن
الرجلين الما عليه في الفصل بينهما فقلت اتترك الحكم لي قال لك ما تريد قلت هل يكون
حكماً فاطعاً لا يتأفف ولا يتقضى قال نعم فالتفت الى المرأة وقلت اي الرجلين تريدين
قالت هذا واشارت الى قاتل اخيها فقلت له خذ زوجك وامض

وقد وقعت لنا مسألة مثل هذه وانا سائر مع البكاشي هميس على مقربة من المشرع فاجا
لقينا على الطريق رجلاً من المهاجرين الذين جاءوا معنا من الخرطوم وكان معه امرأة
ورجلان يحملان جلد شاة وحزمة صغيرة من اللبن فلما رأونا قال المهاجر كنا سائرين الى
المشرع نتقاضي على هذه المرأة وقد تزوجتها في الخرطوم بسنة الله ورسوله فلما جئنا الى هذه
البلاد رأها اخوها واخذها مني وباعها لهذا الرجل . ثم ارانا عقد الزواج وكان عليه ختم المأذون

في الخرطوم والصداق عشرة غروش . وقال الاخ ولم يكن مسلماً هي اختي سرفت صتمية من بيت ابي ويصت في الخرطوم فلما رأيتها عرفتها وهي ملكي بعد وفاة ابي . وقال الثالث هي زوجتي وقد اشتريتها من اخيها بعدد هذه الثبتات من النعاج وحل الخزوة فاذا هي عشرون بنت . قتلنا للاخ ارجع الى الرجل نجاته لانك بنته امرأة هي زوجة رجل آخر قال لابل هي ملكي لان زوجها الاول لم يدفع لي ثمنها فلا حق له بها وقد ماتت نجيعة من هذه النعاج وارانا جلدها . ورأينا الرجل مصيباً تكن الخوصمة كانت بينه وبين مسلم تزوج امرأته زواجاً شرعياً قتلت للبكاشي هيس لا يحل هذا المشكل الا البيوزباشي عباس افندي عثمان وارسلنا الجماعة الى الشرح حيث عرضوا قضيتهم عليه فغلها على امون سبيل .

نساء تلك البلاد

والنساء هناك من العروض التي تباع وتشترى فلو اتفق ان رجلاً سبي امرأة او سرفها وبقيت عنده سنوات ثم عثر عليها زوجها طالبة بها وبولادها كما نطالب بالفرس ونساجها . واذا توفي رجل عن زوجات وبنات ورثتهن ابناؤه كما يرثون امواله الاخرى . ويقتني الرجل من النساء بقدر ما عنده من البقر والتم وشئ المرأة من بقرتين الى عشرين بقرة او ما يعادل ذلك من الضأن او المزر . حكى لي البكاشي هيس مرة انه نزل ضيفاً على احد سلاطين تلك البلاد فاوأم له ولحمة كان فيها من الاطعمة دجاج قد سلق وامعاووه فيه فقال له من طبخ هذا الطعام قال احدى زوجاتي قال كم عندك منهن قال تسعني قليلاً ثم خرج حتى وقف على الباب وجعل يعد منازلهن فلما عاد قال من خمس عشرة امرأة .

اما نساء تلك البلاد فكثيرات منهن حسان مستويات الخلق رشيقات القدر يزرين بكثير من البيض الحسان شكلاً واعتدالاً لكنهن متى كبرن بحيث منهن معالم تلك الحاسن واعضادهن قبيح تنبوعه الابصار . والمتزوجات منهن يتشخن بوشاحين من الجلد متقابلين وربما انزرت الثياب يجلد تالك يرسلنه على الصدر . ومنهن من تتخذ بضع ورققات من ورق الشجر تستعيب منها بالجلود فتكاد تكون متجردة . اما العذارى فبعضهن متجردات ويتشع البعض الآخر بالرهط وهو جلد مشتق من اعلاء الى اسفله كانت تلبس الامامه عند العرب ولا يزال معروفاً بيننا الاسم في السودان . قال ابو العلاء المغربي

قبيل عن الرهط الاماني غادة لما من عقيل في ممالكها رهط